﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾

[الأنبياء: 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أهـل الإيـمـان في مـأمـنٍ يـوم القيامة من النّار

بعد أن ذكر حالَ الَّذين ﷺ، وسبقت كلمةُ اللّه في رضائه عنهم، وإدخالهم الجنّة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: 101]، وبيَّنَ أنّهم مبعدون عن تلك النّار الَّتي سبق وصفها، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101]؛ ناسب أن يذكر هنا صفة بُعدهم عن نار جهنّم، فهم لا يسمعون حسيس النار، ولا يصلهم منها أدنى أذًى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِيسَهَاۖ﴾: أصلُ الكلمة مِنَ الحِسِّ، وهو مُطلَقُ الصَّوتِ، أو الخَفيُّ منه[1]، والحِسُّ والحَسيسُ: الشّيْء تَسْمَعُه مِمّا يَمُرُّ قَريبًا مِنْك ولا تراهُ، وهو عامّ في الأشياء كلها[2]، وكذلك: الحِساسُ [3]، والحَسيسُ في الآية مرادٌ به: الصَّوْتُ الَّذي يَبْلُغُ الحِسَّ، أي الصَّوْتُ الَّذي يُسْمَعُ مِنْ بَعيدٍ [4].

2) ﴿ٱشۡتَهَتۡ﴾: الشَّهْوَةُ: الرَّغْبَةُ الشَّديدَةُ، يُقالُ: شَهِيَ الشّيءَ وشَهاهُ، يَشْهاهُ، شَهْوَةً، واشْتَهاهُ، وتَشَهّاهُ: إذا أحَبَّه ورَغِبَ فيه [5]، والشَّهْوَةُ أيضًا: اشْتياقُ النَّفْسِ، وتُطْلَقُ بِمعنى طَلَبِ الشّيْءِ مَرَّةً بعد أُخْرى [6]، والشَّهْوانُ: الشَّديدُ الرَّغْبَةِ في الشّيْءِ، وشيْءٌ شَهيٌّ، أي:

(1) الجوهري، الصحاح: (حسس).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حسس).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (حسس).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 156.
(5) ابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شهو).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (شهو).

لَذيذٌ مَحْبوبٌ [1]، والجَمْعُ: شَهَواتٌ، والمُرادُ بالشَّهْوةِ في الآية: نُزوعُ النَّفْس إلَى ما يَلَذُّ لها [2].

3) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: أصلُ (خلد) يَدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمَةِ، فيُقالُ: خَلَدَ: أقامَ، وأخْلَدَ أيضًا، ويَقولونَ رَجُلٌ مُخْلَدٌ ومُخْلِدٌ، إذا أبطأ عنه المَشيبُ؛ لأنَّ الشَّبابَ قَدْ لازَمَهُ ولازَمَ هو الشَّبابَ [3]، والخُلودُ: الدَّوامُ والبَقاء، وطولُ الإقامة بالقرار [4]، وهو أيضًا: المكثُ الطَّويل، يُقالُ: خَلَدَ بالمكان، يخلد، خُلودًا: إذا دام فيه، وبقي فيه لا يخرج منه، وأخلَد الرَّجُلُ بصاحبه، أي: لزِمَهُ، والمُرادُ بالخُلودِ في الآية: طولُ المُكثِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهل السَّعادة والتَّوفيق للطّاعة والبُشرى بالثَّواب مُبعَدون عن دخول النّار

يقول اللّه سبحانه: هؤلاء المؤمنون الصّادقون الَّذين سبقت لهم من خالقهم الدَّرجةُ الحسنى لا يَسمَعون - وهم في الجَنَّةِ - صَوتَ جَهنَّمَ وإحراقِها الأجسادَ؛ لِبُعدِهم الشَّديدِ عنها، والمُؤمِنونَ دائمون فيما أحبَّته نفوسهم من ألوان النَّعيم حسّيَّةً كانت أو معنويَّةً، فبكلٍّ يتنعَّمون، وهذه ثلاث صفات لمن سبقت لهم الحسنى، وهي: البُعد عن النّار، وعدم الإحساس بما فيها من الشَّدائد، وخلودهم في الجنَّة ينعَّمون بلذّتَيها الحسّيَّةِ والمعنويَّة [5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فنُّ المُبالغة في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾:

الحفاوة بأهل الجنّة بصرف الأذى عنهم

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾؛ أي: لا يسمع أهل الجنّة حسيس النّار إذا نزلوا منازلهم في الجنّة، فالجملة مسوقةٌ للمبالغة

(1) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (شهو).
(2) الراغب، المفردات: (شهو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 1/ 198، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 160.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 421، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 346، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 531، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1162، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 254.

في إنقاذهم منها[1]، بغية أن يُتصوّر مدى حفاوة اللّه بهم، وفضله عليهم في إبعاد الأذى عنهم يوم القيامة، فالجملة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بدلٌ من ﴿مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: 101]، أو حالٌ من ضميره مَسوقةٌ للمُبالغة في إنقاذهم منها[2].

سِرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

حيثيّات عدم سماع المؤمنين لحسيس النّار

قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ مؤكِّدةٌ لما أفادته الجملة الأولى الَّتي حكت بُعدَ المؤمنين عن النّار؛ ومعلومٌ أنّ الإبعاد يكون بعد القرب، فيُفهَم منه أنّهم أوردوا أوَّلًا، ولمّا كان مظنَّةَ التأذّي بها دُفِعَ بقوله سبحانه ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ فهي مستأنفةٌ لدفع ذلك، فعلى هذا يكون عدم سماع الحسيس قبل الدّخول إلى الجنّة، وذلك حين المرور على الصّراط، فهم لا يسمعون حسيسها لسرعة مرورهم، وهو ظاهرُ قول ابن عباس ﷺ حيث قال في الآية: (أولئك أولياء اللّه تعالى يمرّون على الصِّراط مرًّا هو أسرع من البرق فلا تصيبهم ولا يسمعون حسيسها)، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ مع ما قبلها خبرٌ بعد خبر، أو هي بدلٌ من ﴿مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: 101]، وجوَّز أن تكون حالًا من ضميره[3]، فالعلاقة بين الجملتين هي كمال الاتّصال، فامتنع لذلك الوصل بينهما؛ إذ فُصِلت جملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ عن الجملة الأولى؛ لأنّ بها تفصيلًا لبعض ما أجملته الجملة الأولى، من الإبعاد عن النّار، فهي منها بمثابة البدل.

سرّ اختيار نفي السّماع دون الرّؤية:

نفي السَّماع أدلُّ على البعد من نفي الرُّؤية

وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بيانٌ لمعنى ﴿مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]؛ أي: مبعدون عنها بعدًا شديدًا فلا تلفحُهم نارُها، ولا يروعهم

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 17/ 75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 87.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 93.

منظرها، ولا يسمعون صوتها، والصّوت يبلغ إلى السّمع مِنْ أبعد ممّا يبلغ منه المرئيُّ[1]، والرُّؤية تدلُّ على القرب الشّديد، ثمّ إنّ نفي رؤية النّار لا يدلّ على البعد عنها، بينما عدمُ سماع الحسيس يدلّ على البُعد الشّديد، وعمومًا يدلّ عدمُ السّماع على عدمِ الرّؤية؛ لأنّ عدم السّماع فيه معنى البعد الشّديد، أمّا عدم الرّؤية فلا يدلّ على ذلك.

دلالة التّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾:

وعد الله بعدم سماع المؤمنين حسيس النّار

أفاد المضارع المنفيّ هنا نفي الحدث في المستقبل؛ الَّذي هو سماع حسيس جهنّم؛ فأولئك المؤمنون هم مبعَدون عن نار جهنّم، و﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ حالًا ومستقبلًا، وهم خالدون في الجِنان في مأمنٍ من شرورها، مع ما في الجملة من الدَّلالة على الحاليَّة الَّتي يعبَّر عنها بالفعل المضارع، وكذلك فإنَّ المضارع أبلغ في تصوير المشهد واستحضار الصّورة.

بلاغة التّعبير بـ(الحسيس) دون (الصّوت):

الحسيس أقل ما يُمكن سماعه

الحسيس في قوله تعالى ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ هو الصّوت الَّذي يبلغ الحسّ؛ أي الصّوت الَّذي يُسمع من بعيد؛ أي لا يقربون من النّار ولا تبلغ أسماعهم أصواتُها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها فلا يقرع أسماعَهُم ما يؤلمها[2].

دلالة الكناية في: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾:

بيان شدَّة بعد النّار عنهم

والحسيسُ صوتٌ يُحَسّ به؛ أي: لا يسمعون صوتَها سمعًا ضعيفًا؛ كما هو المعهودُ عند كون المصوِّت بعيدًا؛ حتَّى إن كان صوتُه في غاية الشّدّة[3]، فعدمُ سماع حسيسها كناية عن شدّة بعدها عنهم، أو بعدهم عنها، وأكّد ذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 87.

دلالة التّعبير بـ ﴿فِي﴾:

خـلـودهـم في حالات تختارها أنفسهم

قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾؛ التّعبير بـ ﴿فِي﴾ لدلالة الظّرفيّة المجازيّة، فجعل ما اشتهت أنفسُهم موضعَ خلودهم، جاء في المقتضب: "وأمّا (في) فهي للوعاء"[1]، فصارت ما اشتهته أنفسهم كالوعاء لهم وهم خالدون على هذا الحال، فيكون خلودهم في حالةٍ تختاره أنفسهم من التّنعّم والتّلذُّذ والشّهوات.

فائدة تقديم الظّرف ﴿فِي﴾:

الـدّوام في غاية التّنعّم

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ بيانٌ بفوزهم بالمطالب بعد ذلك الخلاص، والمراد أنّهم دائمون في غاية التّنعّم، وتقديم الظّرف للقصر والاهتمام[2]، فقد قصر ذلك التّنعّم على ما تختاره أنفسهم من الشّهوات والملذّات، وكذلك لرعاية الفواصل[3]، وفي تقديم الجارِّ والمجرور أيضًا تعجيلٌ بمسرَّة البشرى، فيكفي المؤمن أن يسمع ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ حتَّى يتحقَّق في نفسه عظيم البشرى بأنه سيكون في ما تشتهي نفسه من ملذّات.

بلاغة الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

الاتّـسـاع في مـا تشتهيه أنفسهم من الملذّات

بعد أن ذُكِرَ بُعدُ أهل الجنَّة عن النار وسلامتُهم منها في قوله ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾؛ عُقّبَ ذلك بما هو أخصّ من السّلامة وهو النّعيم الملائم، وجيء فيه بما يدلّ على العموم؛ وهو ﴿فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾[4]، و﴿مَا﴾ موصولةٌ واقعةٌ هنا على صفةٍ من صفات العقلاء، ومدّة الألف المتّسعة في آخرها تشاكل الاتّساع في معناها، وأفاد ذلك اتّساع ما تشتهي أنفسهم من الملذّات الّتي لا تنتهي، فهم خالدون في ملذّاتهم وما تشتهيه أنفسهم، يتّسع ذلك سعة

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 308.
(2) المبرّد، المقتضب: 4/ 139.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 93.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.

خلودهم في الجنّة، فالجملة ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ بيانٌ لفوزهم بالمطالب إثرَ بيان خلاصِهم من المهالك والمعاطب؛ أي دائمون في غاية التّنعّم[1].

سرُّ التّعبير بالاشتهاء دون غيره:

بـيـان عـظـيـم نعيم المؤمنين في الجنّة

الاشتهاء: حبّ الشّيء واشتياقه والرّغبة فيه ونزوع النّفس إليه[2]، وعبّر بالاشتهاء دون التّلذّذ لما بين الكلمتين من فرقٍ معنويّ؛ فالشَّهْوَة توقان النَّفس إلَى ما يلذّ ويسرّ، واللّذة ما تاقت النَّفس إليْهِ ونازعت الى نيله[3]، فاللّذة فيها الاحتياج إلى بذل الجهد لنيل ما اشتهته النّفس، وأمّا قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ فليس بينهم وبين ما اشتهت أنفسهم حاجةٌ إلى بذل جهدٍ؛ بل هم كائنون فيما اشتهته أنفسهم.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿ٱشْتَهَتْ﴾ دون المضارع:

نعيم المؤمنين في الآخرة بما كان محظورًا في الدُّنيا

دلّ الماضي في قوله: ﴿ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ على ما اشتهته أنفسهم في الدّنيا ولم يتحقّق لهم، لما في الدّنيا من محظوراتٍ عليها، والمحظورات على النّفس في الدّنيا كثيرة، وكانت من قبيل نزغ الشّيطان في طلب تحقيقها، لكنّ أحدهم كان قد كفّ نفسه عنها في الدّنيا فجعلها الله له في الآخرة خالصةً لهم خالدين فيها.

سرّ إسناد التّشهّي إلى الأنفس:

النّفس مستقرُّ التّشهّي

في قوله: ﴿ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ فأسند التّشهّي إلى النّفس؛ لأنّ النّفس هي محطُّ الشّهوات في الدّنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]، فلمّا حصّنها صاحبها في الدّنيا ومنعها من الشّهوات، فقد استحقّت في الآخرة أن تنال ما تشتهيه، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: 71].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 87.
(2) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 190.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿أَنفُسُهُمْ﴾:

تمليك الأنفس في الجنّة حريّتها واختيارها

الإضافة نسبة اسم إلى اسم آخر، وإسناده إليه، ففي قوله تعالى: ﴿فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ الإضافة هُنا بمعنى اللّام، وهي لبيان الملك أو الاختصاص[1]، فهي الأنفس الَّتي اختصّت بهذه المكرمة الإلهيّة؛ وهي أنفُسُ أولئك الأولياء الَّذين امتنعوا في الدّنيا من الشَّهوات، فاستحقّت تلك الأنفس اختصاص اللّه لها بأن تكون لها في الجنّة ما تشاء وتشتهي خالدةً على هذا الحال.

سِرُّ التعبير بالخلود في قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

خلود المؤمنين في شهواتهم

وما يدلّ على الدوام وهو قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾[2]، فإنّ لتلك الأنفس ما تشتهي من كلّ شيء، وهم خالدون على هذا الحال، والتّعبير بالخلود هو التّعبير الجاذب عند الحديث عن اشتهاء النّفس؛ فشهوات النّفس تنقضي حال نوالها، وهذا على خلاف شهوات الآخرة الَّتي تخلد بأصحابها، ولا تنتهي أبدًا.

دلالة التَّعبير بالاسميَّة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ دون الفعليَّة:

ديمومة أهل الجنّة وانغماسهم بما يشتهون

الجملة الاسميّة تدلّ على الثّبات، فلا تغيُّر لحالهم هذه، ولو كانت جملةً فعليّةً لاقتضى ذلك التّجدّد واحتمال التّغيّر من وقتٍ إلى آخر، لكنّهم باقون على حال الانغماس فيما اشتهت أنفسهم، خالدون على هذه الحال دون حدوث تثبيطٍ لها أو انحسارٍ فيها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاشتهاء واللّذّة:

تدرّج أهواء النّفس وتنوّعها

الشّهوةُ تَوَقانُ النّفس إلى ما يلذّ ويسرّ، وميلُ الطّباع إلى المُشتهى، وليست من قبيل الإرادة، واللّذة ما تاقت النّفس إليه ونازعت إلى نيله، فالفرق بينهما ظاهر[3]، واللَّذَّة لا تكون إلّا مشتهاة[4].

(1) الخضري، حاشية الخضريّ: 2/ 3.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 306.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 463.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»